الشخصية في رواية ملكة العنب
قراءة تأويلية

د. محمد صالح خلف الجبوري
كلية طب الأسنان

بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنْ الرَحِيمْ

الخلاصة

تهدف الدراسة إلى الوقوف على بعض التقنيات الروائية، التي أسهمت في صياغة عالم الرواية صياغة فنية مميزة بحسب ما تقتضيه طبيعة اللحظة التاريخية المتأزمة التي يعيشها الكاتب، ألا وهي الشخصية، وما يحيط بها من تغيرات وظروف أسست لهذا النوع من الكتابة الفنية، والتي يروم الكاتب من خلالها معالجة بعض الموضوعات، والأزمات التي يمر بها الأشخاص أفراداً وجماعات؛ لذا كان علينا الوقوف عندها في محاولة فهم قراءتها؛ بهدف تحليلها والوقوف على كنهها، وكشف الدلالات العميقة المخبوءة خلف بنيتها الداخلية، والأسباب والدواعي التي تقف وراء سلوكياتها، وممارساتها على مسح الأحداث؛ لأن الهدف من القراءة هو فهم المقروء، والقراءة هي عملية تجري داخل الفرد على نصٍ مكتوب؛ لفك غموضه وسبر أغواره، والكشف عن مستويات معناه؛ للوصول إلى هدف الكاتب ومبتغاه. ونحن عندما نقرأ نتدبر ونتأمل من أجل الوصول إلى غايتنا، التي هي فهم ما نقرأه، وهذا الفهم هو بطبيعة الحال إنتاج جديد للنص.

المقدمة:

في كل دراسة هناك جملة من الأمور الواجب على الدارس الوقوف عندها بما يعزز آراءه وأطروحاته العلمية، التي يراها صحيحة عند قراءته لنصٍ ما، ومحاولة فهمه وتحليله، وهذه الأمور هي المصطلحات والمفاهيم، والأطروحات السابقة ذات الصلة بمضمون الدراسة؛ كي

يتسنى للدارس الوقوف على الظواهر الأدبية وتفكيك رموزها، والإفادة من الخبرات والنتائج السابقة في كيفية التعاطي معها؛ كونها تمثل فكراً إنسانياً يؤسس دلالته على رؤى عقلية أو فلسفية لما يحيط بنا من ظروف. فالكاتب صاحب رؤية ومعرفة إنسانية، وهذه الرؤى تتباين من كاتب لآخر، بحكم الثقافات والمرجعيات الفكرية والفلسفية لهم؛ لذلك فإن ميدان الأدب والنقد هما من أكثر الميادين تبايناً في الآراء والرؤى، وما أردنا أن نسلط الضوء عليه في هذا البحث هو قراءة تأويلية لما اشتملت عليه الرواية من أبعاد فكرية (دينية)، وسياسية واجتماعية للشخصيات؛ هدفها استكشاف المعاني والدلالات الثاوية في النص، بوصفها ذات طبيعة مجازية، وهذا يعتمد بالدرجة الأساس على ثقافة القارئ، ومقدرته على التواصل مع النص. فالشخصية هي من يمثل الأحداث، ويعبّر عن رؤى الكاتب وأفكاره وطريقة عرضه لما يريد أن يبوح به أو يوصله إلى المتلقي. ونحن في محاولتنا هذه نكون في عملية لإنتاج نصٍ جديد، من خلال ما نقوم به من تقريب للرموز بعضها لبعض، وضمّ للعلامات وفك للشفرات؛ بغية الوصول إلى الدلالات الخابية تحتها، وهذا يتأتى من عملية التفاعل مع النص" وهذا التفاعل كفيل بجعل القراءة فاعلة ومنتجة، كما أنه يضمن التواصل المطلوب بين الطرفين"(١)، الذي بدونه لا يمكن أن تكون هناك عملية تأويل، ومهما كانت المحاولة فإنها تبقى عاجزة عن الوصول إلى حدٍ نهائي في التأويل لهذا النص؛ بل يبقى مفتوحاً لغيرنا من القراء كي يجدوا تفسيراً وتأويلاً بحسب ما يؤمنون به من أفكار، وما يتبنون من أيدلوجيات، وما يحملون من ثقافة؛ لأن القراءة " عملية عقلية بالغة التعقيد، وهي أبعد ما تكون عن المعنى المدرسي الذي ألفنا إسناده لها، والذي يحصرها في التتبع البصري لما هو مكتوب، وشرح الصعب منه، ثم الانتقال إلى استخراج الأفكار والمعلومات الموضوعة في النص. إنها عملية خلّاقة يباشرها القارئ بكل مداركه الحسية والذهنية وبما أوتي من تكوين وتجارب في الحياة.(٢)؛ والقارئ هو من يعطي أو يضيف معاني إلى النص، لا كما يتوهم البعض ويجعل العكس صحيحاً. لذلك سنعمد إلى الوقوف عند أبرز ما في هذه الشخصية، وما أثر فيها، وساعد على تكوينها، وجعلها بالصورة التي هي عليها في الرواية.

الشخصية:

الشخصية هي العنصر الفني الأدبي، القادر على إعطاء الصورة الواضحة لكل ما يحيط بنا من أحداث، لذا نجد الكاتب يعمد إلى تحميلها رموزاً، أو أفكاراً تعبّر عمّا يجول بخاطره، وما يعتلج في نفسه تجاه قضايا معينة يراد التنبيه إليها، فهي التي تصطنع اللغة، وهي التي تبث وتستقبل الحوار، وتصف المناظر وتنجز الحدث، وهي التي تناضل من أجل الوصول إلى أهدافها، ونظراً لأهمية الشخصيات، ولغنى الرواية بها، واختلاف مستوياتها، رأينا من المناسب أن نقف عندها لبيان كنهها، وتأويلها، ودراسة تأثيرها في الواقع المعبّر عنه، كذلك توضيح أهميتها ودورها في صناعة الأحداث، وعلاقة هذه الشخصيات مع غيرها؛ كونها تمثل وسيلة الكاتب في تجسيد رؤاه وإحساسه بالواقع. وهذا بطبيعة الحال من مهمة الفن، الذي هو" تغيير الإطارات التقليدية للحياة، ولفت الأنظار من خلال التشققات والشروخ إلى حقيقة أسمى، أو الدعوى إليها وبث الأمل فيها"(٣)، وهو ما لا يتم إلا عن طريق الشخصية' التي تصطنع المناجاة، وتصف معظم المناظر التي تستهويها، وتنجز الحدث وتنهض بدور تضريم الصراع، أو تنشيطه بالاعتماد على سلوكها وأهوائها وعواطفها، كونها هي التي تقع عليها المصائب.. وهي التي تتحمل كل العقد والشرور، وأنواع الحقد واللؤم، فتنوء بها ولا تشكو منها، وهي التي تعمّر المكان، وتتفاعل مع الزمن فتمنحه معناً جديداً.(٤)؛ لذلك يمثل مفهوم الشخصية عنصراً محورياً في كل سرد، بحيث لا يمكن تصور رواية بدون شخصيات، ومع ذلك يواجه البحث في موضوع الشخصية صعوبات معرفية متعددة، حيث تختلف المقاربات والنظريات حول مفهوم الشخصية حتى تصل إلى حد التضارب والتناقض.(٥). وفي كل عمل فني لا يمكن للدارس أن يتوصل وبشكل دقيق إلى مغزى ذلك العمل، دون أن يتعرف على البيئة التي أنتجته، وعلى الظروف المحيطة التي أوجدته، وهذا لا يعني أن الرواية أو غيرها من أعمال الأدب وثيقة تاريخية تحمل الحقيقة مسجلة، أو هي قصة حقيقية تسجيلية، وثائقية؛ لأن الأدب في هذه الحالة يفقد عنصراً مهماً وهو جانبه الفني الانتقائي.(٦)، بل إننا نتابع في الرواية كماً كبيرا من الشخصيات تملأ هذا الحيز، وليس من الضروري أن يكون هناك قطبا

صراع فحسب، بل إننا نتابع في الرواية كل الشخصيات وهي تناضل من أجل الوصول إلى أهدافها. فتتقاطع الطرق وتنبني شبكة معقدة من العلاقات والصراعات والتصالحات، فالمعروف على الرواية الأدبية أنها تعيد رسم الواقع المتنوع والواسع، إنها ترسم البيئة مضمنة ثقافتها والأنشطة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.(٧). أي أن الرواية بطبيعتها ما هي إلا سرد لأحداث ووقائع تتعلق بحياة شخصية واحدة أو عدد من الشخصيات، فضلاً عن أنها توضح تطور حياة هذه الشخصية أو الشخصيات في تفاعلها المتبادل بدائرة الحياة المعقدة الممتدة.(٨)، حيث نراها تهتم بتفاصيل حياة الشخصية، ثم بعد ذلك تعمد إلى تطويرها وتساعد على نموها، وهذا النمو ما هو إلا عملية اكتساب وتعديل وتحوير وتهذيب للسمات؛ أي إنه عملية تعلّم بأوسع معنى لهذه الكلمة.(٩)، وفي دراستنا للشخصية في رواية (ملكة العنب)، سنعمد إلى تقسيم هذه الشخصيات بحسب اتجاهاتها، وثقافتها، وسلوكها، وتعاملها مع الأحداث، وما تمثله من أيدلوجيات وأفكار. في محاولة تأويل الأسباب الكامنة وراء ذلك. كذلك يمكن أن يبرز لنا أكثر من اتجاه فكري، وثقافي في الرواية، وهذا واضح على جميع شخصيات الرواية، فضلاً عن الكاتب نفسه، الذي هو العنصر الأساس المسؤول عن تحريك هذه الشخصيات، ورسم مساراتها. إلاّ أن هذا على الرغم من كل شيء لا يعني أن لا يكون هناك رابط يربط هذه الشخصيات جميعاً، ففي كل رواية لابد أن يكون هناك أشخاص يقومون بدور رئيس فيها، إلى جانب شخصيات أخرى ذات دور أو أدوار ثانوية. ولابدّ أن يقوم بينهم جميعاً رباط يوحد اتجاه الرواية على الرغم من الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها. ويسير على نحو يقربهم، أو يلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم، والموقف العام في الرواية.(١٠).

أبعاد الشخصية في الرواية:

١ــ البعد الفكري (الديني): هو واحد من أبعاد الشخصية في الرواية، يتطلع الكاتب من خلاله إلى جعل شخصياته تعيش أفكارها علناً، وأن تخُضع العالم كله لمضمون هذه الأفكار، وما تفرضه من منطق. كما وتتطلع هذه الشخصيات إلى نزعات متعددة. منها: حب الخير والصلاح، ورفض الظلم، والتطلع إلى المستقبل، وإرساء المعالم الأساسية للأمة، والصلة بين حاضرها وماضيها، من حيث وجودها الحضاري وكيانها الموحد، ولم يكن هذا غير مقدمات

لنتائج كان ينبغي الوصول إليها عبر إرهاصات وجدان الكاتب اليقظ.(١١)، كذلك يحاول الكاتب من هذا كله، أن يقدم صورة مكتملة لشخصياته، يستطيع من خلالها رسم الصفات العامة والخاصة لها. وهو بهذا إنما يمهد لما سيترتب عليها من أدوار، في محاولة لخلق نوع من التوازن بين ما تحمله هذه الشخصية من أفكار وما ستقوم به من دور على مسرح الأحداث، وخير من يمثل هذا الجانب هو شخصية الشيخ (محمد حسب الله)، العالم الجليل، الذي يحظى بالاحترام من جميع أهالي القرية، والذي نستطيع من خلال العلاقة بينه وبين أمه، وعلاقته مع باقي أبناء القرية، أن نتعرف على سلوك هذه الشخصية داخل البيت. وكيف يتصرف مع والدته، تلك المرأة البسيطة التي لا تعرف غير جاموستها، التي تقضي جُلّ وقتها معها، وتنعتها بمختلف النعوت.

فالكاتب يستطيع من خلال عرضه لواقع التجربة الإنسانية لدى الشخصية أن يقف على طبيعتها، وكيفية إدراكها لواقعها، والدوافع النفسية والاجتماعية والتاريخية والأيدلوجية، التي تدفعها إلى غاياتها، فيظهرها كخلاصة للطبيعة الإنسانية برمتها. " فليس الوجود المعطى للشخصية، ولا صورتها المعدّة بصراحة، هو ما يجب الكشف عنه وتحديده، إنما وعيها وإدراكها للعالم ولذاتها، أو كلمتها الأخيرة حول العالم ونفسها."(١٢)، وبما أن الكاتب يتأثر بالظروف التي تحيط بالمجتمع، فهو لا يستطيع أن يدير ظهره لما يحدث حوله؛ لذلك فشخصياته أيضاً لا يمكن لها الانعزال، فهي الأخرى تتأثر بالأحداث التي تحيط بها، والتي قد تغير مجرى حياتها في المستقبل، وهذا التغير يشمل السلوك، والعلاقات مع الآخرين، وبالتالي التأثير على نفسية الشخصية.(١٣)، وهذا ما تخبرنا به بعض الحوارات، التي تطلعنا على الكامن والمخفي في سلوك الشخصية وطرائق تفكيرها؛ لأنّ الحوار يستدعي طرفين أو أكثر يتبادلان الحديث في أمر معين، وهذا بدوره يتيح للمتلقي فرصة التعرف على مستوى الإدراك والفهم لدى الشخصيات المتحاورة، وكيف تنظر كل من هذه الشخصيات إلى ما يدور حولها، أو ما تتعرض له من ظروف وأحداث، هذا فضلا عن التعرف على مدى استجابة الشخصيات لما حولها من ظروف وأحداث، وكيفية التعاطي معها في ضوء ما تفرضه ثقافتها تلك على نفسها، وما يتوقعه المجتمع منها، والذي ستسند إليه في نهاية المطاف مسؤولية الحكم على

تلك الشخصيات بالقبول أو الرفض، بحسب طبيعة تعاملها، وما تحمله من فكر ومن ضوابط تؤسس لمنهج معين، أو اتجاه معين:

" أمه هي الوحيدة التي تستطيع أن تنهره، وتعنّف له في القول، بل وتلكزه أحياناً، وتناديه بكلمة يا "ولد" على الرغم من أنه عالم جليل مهاب"(١٤).

كيف لا وهو الشيخ الذي يطلق عليه أهالي القرية(الرجل الصالح)، " الذي ما أن نظرت إلى وجهه حتى شعرت بالسكينة والاطمئنان، يتعامل بحذر وأدب مع كبراء القرية وأثريائها، ومع عامة الناس بالرقة والمودة"(١٥).

من خلال هذه الآراء وهذه الاستجابات لما يحيط بالشخصية من أحداث، وما أضفاه الوصف عليها من سمات، فضلاً عن سلوكياتها، جعلت هذه الشخصية محط احترام واهتمام الجميع. وكيف أنهم اتفقوا على تسميته (بالرجل الصالح)، والحقيقة أن لهذه التسمية دلالة تاريخية قد تكون مستوحاة من شخصية إسلامية أخرى هي شخصية (الخضر عليه السلام)، الذي لقب بـ(العبد الصالح)، فهي لم تطلق من فراغ، وإنما كانت هناك دواعي وأسباب حتّمت على الجميع ذلك، كذلك مركزه الاجتماعي، وما عرف عنه من حلم، فهو عدوٌ لدودٌ للنفاق والظلم، ويتعاطف مع الفقراء ومع عامة الناس، وله آراء تجاه ما يجري من أحداث، وما يطرأ من متغيرات، يعبّر عنها بصراحة دون أن يخشى في الله لومة لائم، وهذا واضح في كثير من آرائه:

" لقد تحولت حقول قريتنا إلى مزارع للعنب وأهملوا زراعة الحبوب، وهم لا يخرجون زكاة هذه الفاكهة المرتفعة الثمن... ولو فعل زراع العنب ذلك لقلّ عدد الفقراء في قريتنا إلى حدٍ كبير... فاتقوا الله وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم"(١٦).

كذلك في موضع آخر:

" الزكاة أو الصدقة تطهّر المال وتنمّيه، وتقرب القلوب، وتطفئ الأحقاد.. فلتستعينوا على هذه الفتنة بذكر الله وتسبيحه، والصلاة على نبيه الكريم، الذي مات ولم يترك درهماً ولا ديناراً، ولا شاة ولا بعيراً.."(١٧).

في هذا المقطع إشارة ودعوة إلى إخراج زكاة المال، لما لهذه الزكاة من دور كبير في تقليل نسبة الفروق الطبقية في المجتمع، وما تسهم به من دور فاعل في إيجاد نوع من التكافل

الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد، فالإسلام عندما شرع زكاة الأموال؛ لغاية مفادها إخراج حق الله سبحانه وتعالى فيها، وتوزيعها على الفقراء؛ لسد احتياجاتهم منها. وعدم إخراج هذه الزكاة أو تقاعس الناس عنها لسبب أو لآخر، هو ما حدا ببعض الفقراء والمعوزين إلى أن يأخذوا حقهم بطريقة غير مشروعة (السرقة)، والتي تمثل ظاهرة بارزة في الرواية سنعمد إلى تسليط دائرة الضوء عليها وعلى الأسباب التي أدت إلى انتشارها وتفشيها في المجتمع . وهذا ما صرح به بعضهم:

" الملفت للنظر أن أحد مشاهير الفقراء المشاغبين وهو (عوض ألعوضي)، أعلن قائلاً :

- إذا لم نأخذ حقنا بالشرع ، فسوف نأخذه بالقوة ." (١٨).

هذا كان واحد من الأسباب التي أدت إلى مثل هذا السلوك. كذلك هناك دلالة تضمنها هذا المقطع في قوله: " تحولت حقول قريتنا إلى مزارع للعنب وأهملوا زراعة الحبوب"(١٩). وكأنّ في هذا التحول في نوع الزراعة تحول أخر في المجتمع، وفي توجهاته ونوع الحياة التي لا تفكر إلا بجمع الأموال، وزراعة المحاصيل، التي يمكن أن تدرّ أكبر قدر من الفوائد بغض النظر عمّا يتبع ذلك من تغيرات وما يستجد من أحداث.

كذلك هناك شخصية أخرى في الرواية تمثل هذا الجانب من توجهات الشخصيات، وتحمل صفات خاصة لا نجدها عند غيرها في الرواية، وإن كنّا على يقين أن هذه الصفات تتباين من شخصية لأخرى، وأنّ الشخصية الروائية " تستمد أصالتها من طبيعة الشخصية الإنسانية، وبما أن الشخصية الإنسانية متنوعة، وهي تمتلك بصمات متميزة وطابعاً متفرداً لذلك فإن من الصعوبة بمكان أن نضع هذه الشخصية في قالب خاص، أو نمط محدد ثابت"(٢٠). وهذه الشخصية على وجه التحديد هي شخصية الرجل الزاهد (أبو المجد شاهين)، والتي إن نظرنا في حقيقة أمرها وجدناها أسم على مسمى، كما يقال، فهي لا ترضى بغير حياة المجد، ونراها محلقة دائماً في السماء، لا تنتمي إلى قانون الأرض بفعل ما تؤمن به وما تهدف إليه، تترفع عن كل ما حولها من زخارف وبهرجة، وزعامات ومناصب، محلقة عالياً كالشاهين بعيداً

عن كل ما من شأنه أن يدنس أو يلوث مسيرتها الحافلة، هكذا خاطبت هذه الشخصية ضابط التحقيق في قضية التنظيم المناوئ للحكومة:

" أنا رجل فلاح، دعاني الداعي في ظلمة الليل، فلبيت النداء ودموعي تسيل على خدي ولحيتي.. ناداه قلبي خذني إليك يا واهب الحياة والرزق، يا ملك الملوك، وَجذَبَني الشوق إلى الأعتاب، وجدتَني أطير.. وأطير بعيداً عن الهوى الطائش."(٢١).

المعروف أن للمتصوفة لغة خاصة بهم، لذا فقد استأثرت هذه الشخصية الرمز والإشارة على التصريح والعبارة ، على اعتبار أن العبارة تضيق كلما اتسعت الرؤيا.. فضلاً عن أنّ التجربة الصوفية تجربة تخاطب القلب وليس الفعل، وبالتالي لا يمكن التعبير عنها إلاّ رمزاً في محاولة للوصول إلى مناطق لا تحيط بها اللغة الأليفة(٢٢)، بهذه العبارات ذات المسحة الصوفية، المشحونة بالعواطف والانفعالات استطاعت هذه الشخصية أن ترسم لنا مسارها في الحياة، انتماءاتها، أهدافها، توجهاتها ورؤيتها، ورأيها بكل ما حولها. بهذا الزهد وهذا الورع، والرضا بما آتاها الله، بهذا المدلول الواسع والعميق أرادت أن تقول: إن هذه الدنيا وإن طالت قصيرة، وإن عظمت حقيرة، وإن امتلأت فارغة، فافهم واتعظ، أنت ومن يقف خلفك من المسؤولين. وهذا ما يبدو جلياً في الحوار الذي دار بينها وبين الضابط:

" قال الضابط في سخرية خفيّة :

_ أجلس يا مولانا.

_ أنني واقف هكذا على بابه منذ أكثر من أربعين عاماً طالباً المثول بين يديه.

كان الضابط متعباً بعض الشيء، قال وهو يكظم غيظه :

_ عمّا تتحدث.

_ عن الوقفة.

_ أية وقفة يا رجل.

_ يقول العارفون أن الوقفة هي العبودية المطلقة التي تقرب من الحق جلّ وعلا..

_ أسألك عن المظاهرة* التي شاركت في قيادتها.

_ الجنازة.

_ بل المظاهرة .*

_ إن هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان.

_ الناس في الجنازة يبكون.. ويصرخون.. لكنهم لا يهتفون ضد الحكومة وقيادتها، ويهددون أمن البلد.

_ وما شأني بغيري.

_ أنت جزء من مجتمع.

الشمعة تضيء الظلمات للناس، ولكنها تحترق وحيدة.

ثم يستمر الضابط في التحقيق معه ولم يستطع الحصول على شيء فيخاطب رجاله بعبارة هم يعرفونها:

_ أيقظوه ..

حينما هوى السوط الأول على عمامته الخضراء هتف أبو المجد:

_ حيٌّ .. قيوم.

وتوالت السياط وهو لا يتزحزح، ولا يكف عن ترديد اسم الله.

_ تكلم يا أبو المجد وإلا قتلناك.

_ فعلها "النمرود" قبلكم، وزعم أنه يحيي ويميت، لكنه عجز أن يأتي بالشمس من المغرب.."(٢٣).

نستطيع من خلال هذا الحوار أن نستشف جملة من الأمور لا يمكن لنا استقراؤها لولا الموقف العسير الذي تمر به الشخصية، فشخصية أبو المجد شخصية صلبة وقوية، لا تبوح بما يختلج في نفسها بسهولة؛ ولكن شدة الموقف، وما أصابها من أذى، جعلها تقول كلمتها الفصل في ما يجري من أحداث، وكيف أن أبا المجد نعت هذه الحكومة بنعوت

مختلفة منها " النمرود" وما تخفيه هذه المفردة من دلالات ومعاني تحمل في طياتها (الوحشية، والظلم، والطغيان)، هذا فضلاً عن ما أورده من آيات قرآنية، وعبارات وكنايات وصف بها الحكومة ومن يمثلها، وكيف أنه استطاع أن يرسم لنا صورة الحياة وواقع الشعب، بل واقع الشعوب في كثير من البلدان العربية.

كذلك دلل الحوار على الهوّى الكبيرة بين هاتين الشخصيتين،(الضابط وأبو المجد)، وكيف استطاع الكاتب أن يجعل من شخصية الضابط وغيرها من الشخصيات في الرواية، مثل (الراعي كشكل، وعوض ألعوضي)، إطاراً للشخصية الملتزمة، وهذا يبدو واضحاً من خلال التركيز على عوامل الإحباط، وإظهار صفات الشخصيات الداخلية والخارجية، والكشف عن عالمها الداخلي المعقد، وهذا لا يكون تعاطفاً من الكاتب مع هذا النوع من الشخصيات، وإنما هو بطبيعة الحال تنفير القارئ من هذه الشخصية، وعزوفه عنها باتجاه الشخصية الملتزمة، والتي تكون على النقيض منها؛ حيث تتجسد السمات الايجابية للشخصية الملتزمة، وهذا التجسيد بدوره يجعلنا نستشعر النقيض من ذلك، فننفر من تلك الشخصيات التي تقف على الطرف الآخر ونرفضها ونزدريها، مما يجعل هذه الشخصيات إطاراً لغيرها وتوضيحاً لها.

٢ــ البعد السياسي: وهذا البعد يتمثل بالأنظمة والقوانين التي تحكم البلد ومن هم على سدة الحكم ويمثل مصدر القرار والسلطة، والذي يسهم بشكل مباشر في تنفيذ الأوامر والقرارات الصادرة عن الجهات المختصة. فالكاتب ابن بيئته كما يقال، ويتأثر بما يحيط به من ظروف سياسية واجتماعية، تمارس تأثيرات معينة تجعله لا يستطيع الانعزال عنها، وبالتالي فإنّ شخصياته هي الأخرى لا تستطيع أن تنعزل عن محيطها، وما يدور حولها من أحداث قد تغير مجرى حياتها في المستقبل، وهذا التغيير قد يشمل السلوك والعلاقات مع الآخرين، والتأثير على نفسية الشخصية بحسب ما تتعرض له من أحداث.(٢٤)، والكاتب في نهاية الأمر إنما يريد إيصال صوت أولئك المتعبين الذين يعانون ما يعانون من شظف العيش، وقسوة السلطة عليهم، فضلاً عن الإهمال وما يتعرضون له من مضايقات وضغوط نفسية، تمارس تأثيراً كبيراً على حياتهم وعلى معيشتهم، حيث استطاع أن يرسم صورة أولئك الذين يرزحون تحت وطأة حكوماتهم، وسوء معاملة أجهزة السلطة. ونجاح الكاتب هنا يعتمد بالدرجة الأساس على مدى

مقدرته في إعادة رسم شخصياته، التي قد يستمدها من الواقع، ويوظفها في إطار فني يراد من خلاله لفكرة معينة، أو لقضية معينة، أن تأخذ مساحتها وحجمها الكافي بين الناس، وأن تكون محطّ اهتمام الناس بعد تنبيههم إليها، ودعوتهم إلى الاهتمام بها، أو صرف النظر عنها، بحسب الأهمية التي تحظى بها أو عدمها، والكاتب بأسلوبه هذا يحاكي الضمائر الحيّة، ويدعوا بأسلوب فني يحاول من خلاله استمالة القارئ، وكسب تأييده لما يدعوا إليه من أفكار عن طريق العبارات المشحونة التي وظفها في أسلوبه، والتي تحاكي الوجدان البشري وإنسانية الإنسان، الذي لا يرضى أن يحيا مهاناً خائراً، مسلوب الإرادة، منتهك الكرامة، التي هي رأس المال الذي لا مساومة عليه.

وفي هذه الدراسة رأينا من المناسب أن نقف عند نوع آخر من الشخصيات تمثل الاتجاه السياسي في الرواية، وهذا النوع من الشخصيات تلقي بضلالها، وتمارس تأثيراتها على الشخصيات الأخرى، فهي التي تحاول رسم مساراتها، وتحدد نمط حياتها، كما تريد هي، لا كما تريد الشخصيات نفسها، مما قد تتسبب بفعل هذا التدخل بتفشي ظواهر معينة في المجتمعات، لما تلقيه تلك الممارسات من تأثيرات على حياة بعض الطبقات في المجتمع، ولاسيما الفقيرة منها، فتزيد من بؤسها وضعفها، بدل أن تأخذ بأيديهم إلى حياة كريمة تخفف من معاناتهم وشعورهم بالضعف والحرمان، وهذا يبدو جلياً في أكثر من موضع في الرواية، كما هو واضح في كلام رئيس المجلس المحلي، أثناء عقده لاجتماع ضمّ أعضاء المجلس يقول فيه:

" إن ما يهمنا أولاً هو أمن البلد، وتلاحم الحزب مع الجماهير، وأخوف ما أخافه هو أن يكون وراء ما يحدث تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين، وقضية الزكاة حضرات الأعضاء، مسألة شخصية بحتة، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التي تروق له."(٢٥).

هنا يمكن أن نلاحظ قصر اهتمامات المسؤولين، وتركيزهم على قضايا خاصة تعتمد بالدرجة الأساس على أمور تخص أمن الحزب، بغض النظر عمّا يعانيه أبناء المجتمع، وهذا الكلام حصل بعد وصول جثة أحد أبناء القرية، من العاملين خارج البلد بحثاً عمّا يؤمّن لهم

بعض احتياجاتهم؛ وقد قتل هناك بعيداً عن أهله وبلده، أخرجته الحاجة والعوز، الذي يعيشه إلى التكسب خارج بلده؛ بحثاً عن أموال توفر له ولأهله حياة كريمة، وتسدُّ بعض احتياجاتهم:

" التهبت القرية بالمشاعر الغاضبة... وهتف المتظاهرون أيضاً ضد الإدارة المصرية التي تفرّط في حقّ أبنائها، وتجامل بدمائهم من أجل الحفاظ على العلاقات السياسية.(٢٦) .

وما أن يتم تشييع هذه الجنازة بموجة من الغضب والشعور بالأسى والحزن على ما يحصل، وتذمر بعض الأشخاص، حتى يصل الخبر إلى الجهات المختصة، التي باشرت على الفور بتطويق المكان، واعتقال عدد كبير ممن شارك بالتشييع، أو لم يشارك؛ بحجة قيامهم بزعزعة أمن واستقرار البلد، والحقيقة إن ما حدث هو تعبير الناس عن أسفهم، وسخطهم لما يحدث لأبنائهم، فضلاً عن وجود أكثر من ألف خريج في القرية عاطلين عن العمل، أصبحت حياتهم لا معنى لها بالنسبة لهم؛ لذلك نراهم ينتهزون أي فرصة للتعبير عن غضبهم ورفضهم؛ لأن الحياة أصبحت لا معنى لها بالنسبة لهم"(٢٧).

إن الظروف التي تتعرض لها المجتمعات، قد تدفع أبناءها إلى سلوك يخالف الآخرين، بفعل ما تعانيه من أزمات تكمن خلفها أسباب عميقة؛ أساسها المعاناة الشخصية، الناجمة عن علاقة تلك الشخصيات مع عالمها المحيط بها، والذي بدوره يزرع الإحباط والخيبة في نفوس الشخصيات؛ بسبب السياسات الخاطئة، وغير المدروسة التي لا تعير اهتماماً لغيرها. فالكاتب مهما حاول في كتاباته فإنه لا يخرج بها عن حدود وطنه؛ لأنه مهما كتب حتى وإن كانت هذه الكتابة من المشاهد التي مرّت به خارج وطنه، لابد وأن تحمل بشكل أو بآخر نكهة أو سمة أو تلويحة توحي بالوطن، والكاتب الأدبي شاعراً أو ناثراً أو مسرحياً أو ناقداً، لن يخرج بأفكاره عن هذه القضية، التي هي شغله الشاغل دائماً، فجميع من يكتبون يتمثلون الوطن في كتاباتهم؛ لأنهم يعتمدون في ذلك على ثلاثية، الأنا ، والزمان. والمكان، والمكان الطبيعي للكاتب ولنتاجاته هو وطنه الذي ولد فيه ونشأ وترعرع، ومهما حاول فلن يستطيع الخروج بأطروحاته وأفكاره عن حدود هذه القضية.(٢٨). وكاتبنا أراد في روايته أن ينقل معاناة جيل بأسره، ونحن في دراستنا نحاول أن نعتمد على الظروف والملابسات التي تحيط بالشخصيات؛ بوصفها تسهم في تأويلها، لأن مما يسهم في تأويل المدركات ما يحيط بالشيء المدرك من ملابسات،

وما يقوم بينه وبين غيره من علاقات، ذلك أن نفس الجزء، كما يفهم في علم التأويل يختلف معناه باختلاف الكل الذي يحتويه... والحركات والسكنات والتصرفات نفسها، قد تبدو جميلة في موضع وقبيحة في موضع آخر، والسبب في ذلك يعود إلى معرفة الملابسات، التي تحيط بسلوك معين، والتي تجعلنا نغيّر حكمنا عن تصرف معين، وسلوك معين، من معيب إلى معقول، ومن قبيح إلى حسن، أو بالعكس.(٢٩).

كان للرواية وما اشتملت عليه من أحداث دور في لفت انتباه المتلقي إلى نوع الحياة التي تحياها الشخصيات، وإلى البحث عن السبل الكفيلة لمعالجة الواقع المتردي، الذي كانت تعيشه هذه الشخصيات، وهذا ما جعلنا نبحث عن تأويل لهذه الأحداث، والذي بدوره أنعكس على سلوك الشخصيات، فقد اعتمد الكاتب في تقديم شخصياته، في كثير من الأحيان على الشخصيات ذاتها، التي تأخذ على عاتقها مسؤولية تطوير الحدث ونمائه، معتمداً بذلك على العلاقات القائمة بين هذه الشخصيات، والتي تتخذ أكثر من طريقة، وأكثر من شكل، حسبما تقتضيه الحاجة إلى ذلك، وحسب ما تتمتع به كل شخصية من أفكار، ومن ظروف نفسية واجتماعية، وأيّ الشخصيات تحبّها وتقتنع بها، وأيّها تكرهها وتزدريها، وهذا الأمر يتم في بعض الأحيان عن طريق الكاتب نفسه، أو عن طريق الشخصيات نفسها، من خلال ما يدور بينها من حديث، سواء كان حديث داخلي (نفسي)، أو حديث خارجي مباشر، تعطينا من خلاله الشخصيات فكرة عن كل منها؛ بحيث نستطيع من خلالها أن نعاين أبعاد تقديم كل شخصية. وشخصيات البعد السياسي توزعت في الرواية بين الشخصيات المثقفة والشعبية، حيث تواجه السلطة الحاكمة الظالمة رغم أنّ الشخصية السلطوية انحصرت في الموظفين الصغار، والسجانين الذين لم يكونوا إلاّ أدوات محركة فاقدة للتميز في ملامحها، وعملها وفكرها، مما أبقاها في حدود النكرات، ولم تبرز في شكل الحاكم المتعقل الكبير، صاحب الفكر والخطة والهدف، ابتداءً من الموظف الصغير حتى عضو المجلس الحاكم. والكاتب من خلال عرضه لهذا النوع من الشخصيات أراد أن يحمّل الآخرين مسؤولية الخيبة التي يتعرض لها المجتمع، وبالتالي يشير ولو رمزاً إلى من كان السبب في ذلك؛ لذا نلاحظ أنّه اتجه إلى أكثر من طبقة في المجتمع في اختيار إبطاله؛ ليكونوا نماذج للفضيلة والالتزام، وللرذيلة، "ولعل الالتزام في

الأدب يكون أكثر ضرورة في المجتمعات التي تحدث فيها الرجّات الاجتماعية والاقتصادية، أو الفكرية؛ لأن الأديب يجد نفسه _ من حيث يدري أو لا يدري_ ملزماً ومرغماً على نصرة الحق، والأخذ بيد المظلوم، والدعوة إلى الخير والمشاركة الوجدانية مع أبناء مجتمعه، أو أبناء البشرية كلها"(٣٠). وهذا واضح في ما استطاع الكاتب أن يقدمه من "مونتاج" لشخصية أبو المجد شاهين، هذه الشخصية الملتزمة، وما تتعرض له من إساءة من تلك الزبانية المجردة من الضمير والتي، تعمل باسم السلطة الحاكمة:

" لم يستطع أبو المجد أن ينسى تلك الإساءة حينما ضربوه على رأسه وهذا ما دعاه إلى أن يغضب ويصرخ في الليل ضدّ من عذّبوه :

_ يا رب خذهم بعدلك.

ثمّ بعد ذلك أخذ يتصور كيف أن الملائكة كانوا يبتسمون والضربات تنهال عليه، وبالمقابل كان الشيطان يرقص من حوله، ويدعوه إلى الضلال. في تلك اللحظة الحرجة استطاع أن يختار طريق الهداية، ويصبر على أذاهم بدل أن ينافق ويناور لينجو منهم، فظهر له جلياً أنّ لا شيء يخلّصه من محنته إلاّ طاعة الله، وهذا ما أراد أن يخبره (لبراعم)، عندما جاءت له وأخبرته أنها تطلب منه أن يوزع لها زكاة العنب على الفقراء، قال لها البركة تدخل قريتنا، وأردف أيضاً:

_ لا الحرث ولا المال ولا الأنعام ولا الأبناء يصنعون المجد.

_ فما الذي يصنعه إذن؟

_ طاعة الله.

نظرت إلى وجهه الطيب المشرق وقالت:

_ أجل..

_ تصوري أننا جميعاً نطيع الله، فماذا سيحدث؟؟ لن يكون بيننا مظلوم أو مقهور أو جائع أو عاطل.. سوف تجود السماء، ويفيض النيل، وتخضر الأرض وتثمر أعظم الثمار، وتندحر الكراهية والجدب..

ترقرقت عيناها بالدموع، تذكرت أنهم أهانوه، قالت:

ـ هل ضربوك يا سيدنا؟؟

هزّ كتفيه وابتسم:

ـ بل ضربوا أنفسهم."(٣١).

يحمل هذا الحوار بين طياته دلائل ومعاني فيها من السخرية من الواقع، ومن الرفض لسياسات الحكومة، ومن النقد لبعد هؤلاء عن طاعة الله، كذلك فيه من الحث على الهداية، ومعرفة الطريق القويم، الذي لن يضل معه أحد أبدا، فضلاً عن الدعوى لهم بأن يهديهم الله وأن يتركوا ما هم عليه من وهم، وإلاّ فإن عذاب الله قادم، من بين أيديهم ومن خلفهم لا محالة، وكيف أن الله بسبب تلك السياسات قد رفع عن هذا البلد الكثير من نعماءه، وسلّط عليهم بذنوبهم الجدب والقحط، وقلة الأمطار؛ لبعدهم عن الله وحجبهم للزكاة، وظلمهم لشعبهم، الذي سيكون وبالاً عليهم؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، والقارئ لأطروحات الكاتب وأفكاره، يجد أنه استطاع أن يتنبأ بما ستؤول إليه الأحداث في بلده؛ بسبب السياسات الخاطئة، الناجمة عن البعد عن الله والخروج على القوانين، والأعراف التي هي أساس العدل والمساواة، وكيف أن لسان حاله يقول: إنّ حكومة الظلم لا تقوم وإن كانت مؤمنة.

٣ـ البعد الاجتماعي: نحاول في هذا الجانب من أبعاد الشخصية أن ندرس الدواعي والأسباب التي تقف خلف، العديد من الظواهر الاجتماعية التي تصيب المجتمع، كذلك نتوقف عند الطبقة الاجتماعية التي تنتمي لها الشخصية، ونوع العمل والتعليم، والحياة المنزلية، والهيئة الاجتماعية التي تعيشها.(٣٢)، فالكاتب لا يمكن أن يقدم شخصياته بهذه الطريقة، ما لم يعتمد على العناصر المكونة لهذا البعد. والمتتبع للتاريخ ابتداءً من الحرب العالمية الأولى، وحتى يومنا هذا، يلاحظ أنّ هناك طبقات في المجتمع، تظهر مع ظهور الأزمات والنكبات، التي تتعرض لها المجتمعات، لذلك يجد الأديب نفسه ملزماً أن يشعر بشعورها، وأن يدافع عنها، ويرفع الحيف عنها ويجد الحلول المناسبة لمعاناتها، وللمشكلات التي تعوق مسارها. وهذا على ما يبدو واحد من الأسباب التي دفعت بالكاتب إلى أن يكتب روايته؛ يدفعه إحساسه وشعوره إلى الانغمار في المجتمع، والتفاعل معه، بوصفه يمتلك رؤية بعيدة، قد لا تكون

موجودة عند غيره، تجعله يكتشف المجهول، وينقل رؤياه إلى مجتمعه بالأداة التي وهبها الله له، فهو مصور عصره، وشاهد عليه.(٣٣)، وبما أن أغلب الأعمال الأدبية تأتي انعكاساً للواقع بمختلف ظروفه وطبقاته، وما يعانيه من صراعات وأحداث، فالكاتب كان وما زال خير معبر عن الأحداث التي شهدتها العصور المتعاقبة(٣٤)، وهو يحاول على لسان شخصياته تصوير الهمّ الاجتماعي، والواقع السياسي العام، والقضايا الشخصية، من خلال إطار واقعي للشخصيات، يعمد فيه إلى تحليل علاقة الشخصيات مع بعضها، ورصد مظاهر الفساد في المجتمع، ونقد الممارسات الخاطئة لبعض أفراده، وإدانتهم، وكشف الزيف في هذا الواقع، وتعرية الفئة المتسببة في تشويهه، ووضع أصابعه على موطن الداء، ومن ثم وصف الدواء، والحلول الناجعة لها.

وهذا يتأتى من خلال متعة السرد واستخدام الكاتب لأدواته الفنية، من اللغة وما فيها من تصوير واستعارة وكناية وبلاغة، وكل ما يحقق متعة الإيهام بالحقيقة، فالكتابة الناجحة من مقوماتها توافر عنصر الصدق، وكأنّ الرواية واقعية تشبه مجريات الحياة التي يعيشها الإنسان، أو التي يجد غيره من حوله يعيشها.

سنحاول في هذا البعد من أبعاد الشخصية أن نركز على مسألة مهمة، ألا وهي حياة الشخصية وعلاقتها مع أسرتها، ومع أقرانها، ومع المجتمع الذي يحيط بها، فضلاً عن المكانة الاجتماعية لها، ودورها في المجتمع، وهنا يكمن دور الأدب الذي يركز بالدرجة الأساس على عوالم الإنسان الداخلية والخارجية؛ لأن الأدب ما هو إلا شكل من أشكال الفكر الإنساني، وموقف إزاء الإنسان والعالم، شأنه في ذلك شأن الفلسفة والدين، لأنه دائماً(الأدب)، رؤية ذاتية للأشياء، وهذا ما يسوغ اعترافنا بأنّ الأدب سلوك وممارسة الوجود، وما يتمخض عنه ذلك الاعتراف أن هذا السلوك يستلزم معايير معينة، وغايات يهدف إليها، وهذه المعايير تتشعب وتتباين على وفق ما يقتضيه وجود الفرد ورؤيته للحياة.(٣٥)، وهذا الوجود يختلف من شخص لآخر، فمنهم الفقير المسكين، ومنهم المشاغب، ومنهم الورع الزاهد، وعدم إنصاف هؤلاء الفقراء كان السبب من أسباب لجوء قسم منهم إلى السرقة، بل والتسبب في قتلهم وهذا ما حصل مع (مصطفى السلاموني)، الذي وجد مقتولاً في أحد حقول العنب:

" إن سيرة القتيل تدعو إلى الدهشة، فزوجته الأولى ماتت في ظروف غامضة، قيل أنه كان يستحم في الترعة ثم قال لها: "ناوليني الملابس" فمدت يدها إليه بالملابس فجذبها إلى الترعة وأمسك رأسها بقوّة ثمّ غمسها بالماء حتى غرقت وماتت وسُجّل الحادث غرقاً.. وشاب الغموض أيضاً وفاة زوجته الثانية.. لكن الناس يؤكدون أنها هي الأخرى ماتت قتيلة، أمّا زوجته الثالثة التي تعيش معه الآن فقد أنكرت معرفتها بجرائمه السابقة، لكنها تحت الضغط أقرت أنّ زوجها يسرق العنب، وأنه باع قبل ذلك ما قيمته عشرون جنيهاً، من العنب المسروق في السوق."(٣٦).

أما عوض ألعوضي، الذي اعتقله العمدة بهدف الكشف عن لصوص العنب، فقد أخذ يصرخ بغرفة العزل بدوار العمدة ويقول:

" بريء..بريء..بريء يا ناس.. أخرجوني من هنا، ولم يستطيع العمدة أن يحصل منه على أيّة معلومة عن اللصوص، ولهذا رأى أن يفرج عنه، بعد ضربه بقسوة، وبعد أن تعهد أن يكون مرشداً عن اللصوص مقابل أن يعطيه العمدة عشرة جنيهات شهرياً، وأن يكتم سرّه.."(٣٧).

لاحظ أن ظاهر الأمر يفسر لنا سبب قيام بعض هؤلاء الأشخاص بالسرقة، وهذا واضح جليّاً مع (عوض ألعوضي)، عندما بعثت في طلبه (براعم)، بعد خروجه من السجن، إثر شكوى قدمتها براعم لمحاسبة اللصوص الذين يسرقون العنب من أرضها، وكيف أنه أراها آثار التعذيب على ظهره، وقال لها: من المسؤول عن هذا ولماذا دائماً هو كبش الفداء. وأنّ العمدة فعل كلّ ذلك لإرضائها، وكيف أنها استطاعت أن تخفف حدة غضبه، وتسترضيه، ليقول لها أخيراً:

" أنا ما كرهتك أبداً ولا سرقت حبة عنب واحدة من أرضك، تنهدت بارتياح وأخرجت من حقيبة يدها عشرون جنيهاً، ومدت يدها قائلة:

_ خذ لتشتري لحمة "عاشوراء"

_ تكفيني كلماتك يا أصيلة.. لا أنكر أني مشاغب وحرامي، لكنك لست ممن أسرقهم.. أنا أفديك بعمري دون أي مقابل.."(٣٨).

القارئ لهذا النص يستشف منه جملة من الأمور، من ضمنها الحلول الناجعة للقضية التي نحن بصدد الحديث عنها، ودراستها، إنّ شخصية مثل (عوض ألعوضي)، كانت تحتاج المال القليل حتى يستقيم سلوكها، وتعيش كباقي الشخصيات الأخرى، لكن الحاجة والحرمان كانا السبب المباشر الذي دفعها إلى سلوك هي مجبرة عليه، فهي ترضى بالقليل ولا تبحث عن الوجاهة، أو التنعم بالأموال والقصور، لكن عندما ترى غيرها ينعم بالخير كله، لسبب أو لآخر، وهي لا تستطيع أن تؤمّن قوت يومها، فإنّ هذا حتماً سيدفعها إلى التفكير بوسيلة تؤمّن لها، ولو جزءاً بسيطا مما تحتاجه، بغض النظر عن هذه الوسيلة، فالجائع يفكّر في جميع الحلول التي تخفف من أزمته، فيضرب القوانين، ولا يمتثل الأوامر، أو أي واعز مهما كان نوعه، وهذا ما صرّح به عوض العوضي:

" مشاغب وحرامي..أعرف.. أنا لست جماداً.. أحسّ وأشعر، ولذلك لابدّ أن أنتقم .. كيف أنسى ضرب الأحذية على رأسي، والسياط على جسدي.. الجائع يسرق.. والمظلوم يصرخ.. ويفعل أيّ شيء."(٣٩).

إذن الشخصية تعي وتعرف ما تقوم به، فهي لم تكن ساذجة، وهي قد تفعل ذلك بقصد في بعض الأحيان، والسبب كما ذكرنا يعود إلى قضية اجتماعية، لها وقعها على نفس الشخصية، كانت تجبرها على القيام بذلك، إنها ثقافة مجتمع، وحياة اجتماعية قاسية، قسّمت الناس وفق أسس خاصة إلى طبقات ومراتب، لغايات دنيوية، وأهداف وقتية زائلة ورخيصة، لا تمت إلى الشرائع السماوية ولا إلى القيم الأخلاقية بصلة، شجّعت مثل هذه الشخصيات على التفكير في الحصول على حقها بهذه الطريقة، أو تنتصر لنفسها، ولذلها وهوانها، وحرمانها الذي عاشته طويلاً. نعم إنّه الظلم الاجتماعي الذي أوجد مجتمعات وطبقات معينة، هو ما حدا بهذه الشخصية إلى مثل هكذا تصرفات، فالتنشئة الأولى في حياة الإنسان لها دور كبير في تكوين شخصيته، وبناء نفسيته، فالذي يولد في أسرة فقيرة ومعدمة، غير الذي يعيش في القصور العامرة والدور الفارهة، والحياة الكريمة، إذن المجتمع هو من يصنع أبناءه، وهو من يوجههم في حياتهم، ويختار لهم نوع الحياة إلا من أبا، وأعني في ذلك الثقافة السائدة، بما فيها من قيم ومن عادات وتقاليد، وأخلاقيات وأعراف، يفسرها سلوك أفرادها؛ لأن دراسة هذه الشخصية

وما تصرح به في بعض الأحيان، أثبتت لنا أنّ سلوكها هذا كان ردّة فعل لمعاناة قد تكون سابقة، منذ وقت بعيد، أو آنيّة، وأنّ سلوكها هذا ما هو إلاّ انفعال كوّن لديها مثل هذه الدوافع، والعقد المزاجيّة، والمعتقدات التي متى أثيرت انطلق ما لدى هذه الشخصيات من كوامن. لأنّ الدافع هو" قوة محركة موجهة في آن واحد، فهو يثير السلوك إلى غاية، أو هدف يرضيه، ولئن أثير الدافع، وأعيق عن بلوغ هدفه ظل الفرد في حالة من التوتر."(٤٠).

كذلك نستطيع أن نرجّح قيام بعض الأشخاص بالسرقة إلى محاولة منهم إلى التكيّف، هذا إذا نظرنا إلى القضية من جانب نفسي، فهو في ذلك يحاول أن يغير في سلوكه بما يتناسب مع ما يحدث في البيئة التي يعيش فيها من تغيرات في محاولة منه لإيجاد حلّ وسط بينه وبين بيئته الاجتماعية، التي أجبرته على البحث عن حلول لمعاناته.

إن للسرقة دلالات ومضامين إذا حاولنا أن نسلط دائرة الضوء عليها تمكنّا من استجلاء الكثير من الحقائق والأفكار التي تختبئ خلف مثل هكذا أطروحات، ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الأسباب والدوافع التي أدت إلى انتشار مثل هذه الظواهر في المجتمعات، كذلك هناك مسألة مهمة أيضاً، يجب مراعاتها، وهي أن هذه السرقات تحدث في مجتمعات القرى والأرياف، وهذا الموضوع إذا ما وقفنا عنده نستطيع أن نعلم حجم الخطر الذي يحيق بالمجتمع، ومستوى الفساد والظلم الذي حلّ فيه، وأود في هذا الموضع أن أنبه إلى مسألة غاية في الأهميّة، وهي أنّ المجتمع الريفي يشتمل على الكثير من القوانين والأعراف، والتقاليد، التي تحكم الأفراد في هذه المجتمعات، بل وتزيد الخناق عليهم، مما يجعل هذه المجتمعات بفعل هذه القوانين والأعراف السائدة أقل عرضة لمثل هكذا حالات من المدينة التي قد تغيب عنها الروابط الاجتماعيّة والأسرية الموجودة بين أبناء القرية الواحدة، والعادات والتقاليد المتوارثة، والسلوكيات والتصرفات، التي تبنى على أساسها شخصية الفرد في مثل هذه المجتمعات، وأيّ منها يُثاب عليها الفرد، وأيّ منها يُعاقب، وهذه كلها تأتي مع القوانين العامة التي تحكم البلد، فالريف يبني علاقاته على أسس القرابة، وتحت شروط اجتماعية صارمة تجعل من إيقاع الحياة في الريف موحداً، فذلك السلّم من القيم والأعراف المتوارثة، يكون رأسمالاً رمزياً جماعياً، يحافظ على النسيج الاجتماعي من التشتت والعطب، ويتحول الحدث الفردي

في الريف إلى هم جماعي، وتخطي حدود التقاليد والأعراف لابدّ أن ينتج فضيحة يهتز لها مجتمع الريف بكليته.(٤١)، ففي مثل هذه المجتمعات هناك قوانين خاصة سارية المفعول، والتي من شأنها أن تحد من الكثير من الظواهر السلبية في المجتمع، والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى الطرد من المجتمع الذي يعيش فيه(العشيرة)، ولكن على ما يبدو أنّ هذا الموضوع أصبح ولشدة خطورته أكبر بكثير من هذه القوانين؛ مما حدا ببعض الفقراء إلى اللجوء إلى السرقة؛ لسد حاجته، وحاجة عياله من قوت يومه، ومما يعانونه من حاجة وعوز، أجبرهم على مثل هكذا تصرفات قد تكون مرفوضة لديهم في زمن من الأزمان.

كذلك من الأوبئة التي أخذت تنخر في جسد المجتمع وأصابته في الصميم، وساعدت على تردي الأوضاع، وبالتالي مارست تأثيراً كبيراً على الصعد كافة، ما ذكره عمدة البلد عبد الشافي وهدان، التي لخّصها بما يلي:

" التلفزيون، والسفر للعمل بالخارج.. وفساد الإدارة.. والبضائع المستوردة، وانهيار التعليم، والبعد عن شرع الله.. والرشوة.. تلك هي الأوبئة السبعة.."(٤٢).

سنعمد في هذا الجانب على التركيز على قضيّة هي الأخرى غاية في الخطورة، مارست تأثيرها على الصعد كافة: الفكرية، والسياسيّة، والاجتماعيّة. وهذه القضيّة هي: (الرشوة)، التي برزت واضحة إلى جانب (السرقة)، على طول مسرح الأحداث، وكانت واحدة من أسباب الفساد الإداري في البلد. مارست تأثيراً على مختلف طبقات المجتمع، وهو ما لا يمكن الخلاص منه إلاّ بالرجوع إلى الله، ودعوى الصالحين:(لا إله إلاّ أنت إني كنت من الظالمين)، وهو ما صرّح به أبو المجد شاهين للعمدة عبد الشافي وهدان:

" عندما لا يحترم الناس شرع الله، ويضعف إيمانهم.. يصبح كل شيء مباح لهم.. كل شيء.. السرقة.. الزنا.. القتل.. شهادة الزور.. الرشوة.

تنهد العمدة وقال:

ــ وما هو العلاج يا رجل الله؟.

قال أبو المجد وهو يحرّك حبّات مسبحته:

_ العودة.(٤٣).

وفي موضع آخر في الرواية، عندما أراد أبو المجد شاهين أن يستخرج رخصة المباني، ماطله رئيس المجلس المحلي؛ لأنه اعتاد أن يأخذ الرشوة من كل من راجعه كما في هذا الحوار:

_ يا أبو المجد صاحِبُنا رئيس المجلس لن يعتمد الرخصة إلاّ إذا دفعت له.

_ رشوة.

_ تستطيع أن تسميها مجرد " أتعاب".

لكنّه واجبه.

_ في الرخصة تدفع.. وفي إدخال الماء تدفع.. وعند مد أسلاك الكهرباء تدفع..(٤٤).

إن هذا الوباء امتد ليشمل جميع مفاصل الدولة، ابتداءً من الموظفين الصغار وحتى المحافظ ثم امتد ليشمل أعضاء المجلس الحاكم ومن يملك زمام الأمور في الدولة، وهذا ما حصل عندما ذهبت (براعم)، إلى المحافظ؛ بخصوص قضية أبناء (الربايعة)، الذين اعتقلتهم السلطة، حيث أنّ كبار الموظفين في مكتب المحافظ يعرفونها جيداً، فهي تغدق عليهم الأموال، وتبعث إليهم كل عام أقفاص العنب، كهدية سنويّة "وكلّ سنة وأنتِ طيبة يا ست الكل، ونحن في خدمتك دائماً"، كذلك هم يعرفونها أنّها سبّاقة بالتبرّع بالمال للمحافظة، عندما يدعو الداعي إلى ذلك. وهي تعلم أنّ نصف هذه الأموال على الأقل، لا تصل إلى الهدف المنشود، وهذه المرّة قدّمت إلى المحافظ شيكاً بمبلغ ثلاثين ألف جنيه، تبرعاً للمشاريع الخيرية، وتناول المحافظ الشيك بالامتنان الواجب، وأثنى على شهامتها، ووطنيتها، ثمّ اجتاحتهُ موجة من الحماس، قال على إثرها:

" سأكلّم وزير الداخلية بنفسي"(٤٥).

وبعد التطمينات التي حصلت عليها براعم من المحافظ، خرجت قاصدة مكتب النائبة سعاد الدباح، التي أخبرتها صراحة، أنّ قضية إخراجهم من الحبس تحتاج إلى خمسة عشر ألف جنيه:

ـ بصراحة أحتاج خمسة عشر ألف جنيه.

ـ ويفرجون عنهم؟.

ـ بالتأكيد..

ـ وبسرعة؟؟.

ـ إنّ كلمتي واحدة ونحن لا نلعب.

قرأت الأستاذة سعاد الدباح الشيك وقالت:

ـ الليلة سأكون مع المتهمين، وسأزف لكِ البشرى في التلفزيون.(٤٦).

بعد أن خرجت (براعم) من عند سعاد الدباح، عرفت أن هناك خلل كبير في البلد، وأنّ الدولة التي يهان فيها أمثال: (حسب الله وأبو المجد شاهين)، هي خارجة عن طاعة الله، وكيف إنه من أجل جنازة قامت الدنيا وما قعدت، وعندما مات (السلاموني)، لم تقم السلطة بما يجب؛ بحثاً عن القتلة، إن هناك خللاً ما عميق الجذور في دنيا الناس، وهناك حيرة في أصول وفروع ذلك الخلل.(٤٧)، هذا ما أراد الكاتب أن يقوله في روايته، على لسان شخصياته، نعم إن الناس قد باعوا دينهم بدنياهم، واستشرت فيهم أمراض زادت في بؤسهم وشقائهم، ووسعت دائرة الهوّى بين السلطة والناس، وهذا ما سيكون سبب هلاكهم وشقائهم.

الخاتمة والنتائج:

١. حاول الكاتب في روايته أن يرسم الصفات العامة والخاصة لشخصياته، وهو بهذا إنّما يمهد لما سيترتب عليها من أدوار، في محاولة لخلق التوازن بين ما تحمله من أفكار وما ستقوم به من أدوار.

٢. السرقة والرشوة من الظواهر البارزة في الرواية، والتي حاول الكاتب تسليط الضوء عليها بهدف إيجاد السبل الكفيلة لمعالجتها، وتشخيص الأسباب الكامنة وراء انتشارها وتفشيها في المجتمع.

٣. الرمز صفة ملازمة للغة بعض الشخصيات في الرواية، أمثال:(محمد حسب الله، وأبو المجد شاهين)، اللذان جاءت عباراتهم مشحونة بالعواطف، والانفعالات، ذات الدلالات المعبرة عن أهدافها، وتوجهاتها، ورؤيتها بما حولها من أحداث.

٤. للحوار دور في استجلاء الشخصيات، ومعرفة الكامن والمخفي في سلوكياتها، وإمكانية استقرائها، والكشف عن الفجوة الكبيرة بين الشخصيات، وبالتالي التعرف على ثقافة كل شخصية، وما تحمله من رؤى أفكار.

٥. استطاع الكاتب أن يجعل بعض الشخصيات إطاراً لشخصيات أخرى، يعمل على إظهارها من خلال التركيز على عوامل الإحباط لهذه الشخصيات، وإظهار صفاتها الداخلية، والخارجية، والكشف عن عالمها المعقد مما يجعل القارئ بطبيعة الحال ينفر من تلك الشخصيات باتجاه الشخصيات الأخرى، فإظهار الشخصيات السلبية يجعلنا نستشعر النقيض من ذلك، ونتعاطف معه.

٦. استطاع الكاتب أن يرسم صورة أولئك المتعبين، الذين يرزحون تحت وطأة حكوماتهم، وسوء معاملة أجهزة السلطة؛ وهو بهذا أراد لفكرة معينة، أو لقضية معينة أن تأخذ مساحتها وحجمها الكافي بين الناس، وأن تكون محط اهتمامهم بعد تنبيههم إليها.

٧. الشخصيات السياسية في الرواية تلقي بضلالها وتمارس تأثيراتها على شخصيات الرواية، وتحاول رسم مساراتها، وتحديد نمط حياتها، مما يجعلها تزيد من بؤسها وضعفها، وهذا ما قد يدفعها إلى سلوكيات خاطئة.

٨. كان للرواية وما اشتملت عليه من أحداث دور في لفت انتباه المتلقي إلى نوع الحياة التي تحياها الشخصيات، وإلى البحث عن السبل الكفيلة لمعالجة الواقع المتردي الذي كانت تعيشه الشخصيات.

٩. حاول الكاتب على لسان شخصياته تصوير الهم الاجتماعي، والواقع السياسي العام، وبعض القضايا الشخصية، من خلال إطار واقعي للشخصيات يعمد فيه إلى تحليل علاقة الشخصيات مع بعضها، ورصد مظاهر الفساد في المجتمع، ونقد الممارسات الخاطئة،

لبعض الأفراد وإدانتهم، وكشف الزيف في الواقع، وتعرية الفئة المتسببة في تشويهه، ووصف الحلول الناجعة لها.

١٠. القارئ لأطروحات الكاتب وأفكاره يجد أنه استطاع أن يتنبأ بما ستؤول إليه الأحداث في مجتمعه(مصر)، بسبب السياسات الخاطئة الناجمة عن البعد عن الله، والخروج عن القوانين والأعراف، التي هي أساس العدل والمساواة.

هوامش البحث:

(١) أثر استقبال نظرية التلقي على النقد العربي الحديث. د. إسماعيل علوي إسماعيل، مجلة الأقلام ،عدد ٤ ، ١٩٩٨ : ٣٠ .

(٢) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ، ٢٠٠٨ :٢٧

(٣) واقعية بلا ضفاف. روجيه جارودي، تقديم: أراجون، ترجمة حليم طوسون، مراجعة فؤاد حداد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٨ : ١٩٩ .

(٤) ينظر: في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، عبدالملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كانون الأول، ١٩٩٨: ١٠٣–١٠٤ .

(٥) تحليل النص السردي. تقنيات ومفاهيم. محمد بوعزة، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠: ٣٩ .

(٦) الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان– دراسة نظرية تطبيقية، د. علي إبراهيم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢: ٩٧ .

(٧) ينظر: صوت الشخصية في النص الدرامي . نهاد سيرس، بحث منشور على شبكة الإنتر نت. www.syriagate.com/nihad sirees

(٨) ينظر: الرواية الروسية في القرن التاسع عشر. د. مكارم ألغمري، سلسلة عالم المعرفة (٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١ : ١١ .

(٩) أصول علم النفس ، دكتور أحمد عزت راجح، دار القلم، بيروت، لبنان: ٥٠٩ .

(١٠) النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣: ٥٦٩.

(١١) ينظر: حوار مع أنطوان مقدسي. ملامح من صورة الجيل الرائد. ماجد صالح السامرائي، مجلة الأقلام، العدد ٥، مايس ،١٩٨٢ : ٥٠ .

(١٢) بنية الشكل الروائي (الفضاء . الزمن . الشخصيات)، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العرب، (بيروت . الدار البيضاء ، ١٩٩٠)، :٢١٠.

(١٣) ينظر: نظريات الشخصية، كالفين هول، جارد نرليندزي، ترجمة، فرج قدري، محمود حفني، لطفي محمد فطيم، مراجعة: د. لوسي كامل مليكه، القاهرة، دار المشارية للنشر، ١٩٧٨: ٢٩٢ .

(١٤) رواية ملكة العنب، نجيب الكيلاني،مؤسسة الرسالة.مصر١٩٩١: ٨ .

(١٥) م. ن :٣ .

(١٦) م . ن : ٣. ٤ .

(١٧) م . ن : ١٠ . ١١ .

(١٨) م . ن : ٤ .

(١٩) م . ن : ٣ .

(٢٠) من أنماط البطل في الرواية العراقية. د.صبري مسلم، مجلة الأقلام العدد العاشر، تشرين الأول، ١٩٨٧ : ٧٨ .

(٢١) الرواية : ٥٨ .

(*) وردت في الرواية مظاهرة، والصواب تظاهرة.

(٢٢) شعرية باطن النص، قراءة في ديوان ترجمان الأشواق، سعيد الغانمي، مجلة الأقلام، العدد الثامن، آب، ١٩٨٩ :٥٥ .

(٢٣) الرواية : ٥٦ .٥٧ .

(٢٤) في النقد الأدبي الحديث، منطلقات وتطبيقات. د. فائق مصطفى، د. عبدالرضا علي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط٢، ٢٠٠٠ : ١٣١ .

(٢٥) الرواية : ١١ .

(٢٦) م . ن : ٣٤ .

(٢٧) ينظر : م . ن : ٣٤ .

(٢٨) ينظر: من السادسة إلى الستين. حياة في الرياض القديمة، الجزء الأول، سليمان الحماد، مؤسسة إصدارات النخيل للنشر، ٢٠٠٦ : ١٩٤ .

(٢٩) أصول علم النفس، دكتور أحمد عزت راجح، دار القلم، بيروت، لبنان: ١٩٦.

(٣٠) الأديب والالتزام. محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠ :٣٤ .

(٣١) الرواية : ٩٦. ٩٨ .

(٣٢) فن كتابة المسرحية. لاجوس آجري، تقديم: جلبرت ملر، ترجمة: دريني خشبة، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع دار الكتاب العربي بمصر: ١٠ .

(٣٣) الأديب والالتزام. محمود الجومرد: ١٠٠ .

(٣٤) ينظر: جماليات المكان. غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠ :١١٢ .

(٣٥) ينظر: جماليات النص الأدبي. دراسات في البنية والدلالة، د. مسلم حسب حسين، منشورات دار السياب، لندن، ط١ ، ٢٠٠٧ : ٥١ .

(٣٦) الرواية: ٢٢–٢٣ .

(٣٧) م . ن : ٢٤ .

(٣٨) م . ن : ٣١ .

(٣٩) م . ن : ٣٢ .

(٤٠) أصول علم النفس، دكتور أحمد عزت إبراهيم: ٧٤ .

(٤١) المدينة تقترح الرواية، سعد محمد رحيم، بحث على الإنتر نت www.elafh.com

(٤٢) الرواية: ١٣ .

(٤٣) م . ن : ٢٣ .

(٤٤) م . ن : ٦٢ .

(٤٥) م . ن : ٧٨ .

(٤٦) م . ن : ٨٢ _ ٨٣ .

المصادر:

(١) الأديب والالتزام. محمود الجومرد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠.

(٢) الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان– دراسة نظرية تطبيقية، د. علي إبراهيم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢ .

(٣) الرواية الروسية في القرن التاسع عشر. د. مكارم ألغمري، سلسلة عالم المعرفة (٤.) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١.

(٤) المدينة تقترح الرواية، سعد محمد رحيم، www.elafh.com

(٥) النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

(٦) أثر استقبال نظرية التلقي على النقد العربي الحديث. د. إسماعيل علوي إسماعيل، مجلة الأقلام، عدد ٤، ١٩٩٨ .

(٧) أصول علم النفس. دكتور أحمد عزت راجح، دار القلم، بيروت، لبنان.(د. ت)

(٨) بنية الشكل الروائي (الفضاء . الزمن . الشخصيات)، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٠.

(٩) تحليل النص السردي. تقنيات ومفاهيم. محمد بوعزة، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠.

(١٠) جماليات المكان. غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.

(١١) جماليات النص الأدبي. دراسات في البنية والدلالة، د. مسلم حسب حسين، منشورات دار السياب، لندن، ط١، ٢٠٠٧ .

(١٢) حوار مع أنطوان مقدسي. ملامح من صورة الجيل الرائد. ماجد صالح السامرائي، مجلة الأقلام، العدد ٥، مايس، ١٩٨٢ .

(١٣) شعرية باطن النص، قراءة في ديوان ترجمان الأشواق، سعيد الغانمي، مجلة الأقلام، العدد الثامن، آب، ١٩٨٩ .

(١٤) صوت الشخصية في النص الدرامي . نهاد سيرس، بحث منشور على شبكة الإنتر نت. www.syriagate.com/nihad sirees. (١٣

(١٥) فن كتابة المسرحية. لاجوس آجري، تقديم: جلبرت ملر، ترجمة: دريني خشبة، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع دار الكتاب العربي بمصر.

(١٦) في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، عبدالملك مرتاض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كانون الأول، ١٩٩٨.

(١٧) في النقد الأدبي الحديث، منطلقات وتطبيقات. د. فائق مصطفى، د. عبدالرضا علي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط٢، ٢٠٠٠ .

(١٨) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨ .

(١٩) ملكة العنب، رواية، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، مصر، ١٩٩١.

(٢٠) من أنماط البطل في الرواية العراقية. د. صبري مسلم، مجلة الأقلام العدد العاشر، تشرين الأول، ١٩٨٧ .

(٢١) من السادسة إلى الستين. حياة في الرياض القديمة، الجزء الأول، سليمان الحماد، مؤسسة إصدارات النخيل للنشر، ٢٠٠٦.

(٢٢) نظريات الشخصية، كالفين هول، جارد نرليندزي، ترجمة، فرج قدري، محمود حفني، لطفي محمد فطيم، مراجعة: د. لوسي كامل مليكه، القاهرة، دار المشارية للنشر، ١٩٧٨.

(٢٣) واقعية بلا ضفاف. روجيه جارودي، تقديم: أراجون، ترجمة حليم طوسون، مراجعة فؤاد حداد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٨.

ABSTRACT

The study aims to step on some novel techniques, they may contribute to formulate artistically according to the nature of peak historical period that the novelist lives. It is surely the character, it is surrounded by conditions and actions as a basis for this type of writing. The novelist himself tries to treat some issues and agonies passed by group of people. Hence, we should see it to analyze the hidden references in the deep structures, the cusses and motivations of behaviors, scanning the actions. The aim of reading is to understand the written, and the reading is a process done inside the character in a written text to unveil the ambiguity as well as the levels of meanings. This is in order to reach the aim of the novelist, when we read; we can manage and contemplate to reach the aims of what can be understood. This understanding is naturally a new production to the text.